لا يمكن لهم أن يراعوا حقوقه كما يجب أن تُراعى ، فلا بد أن تفلت منهم أشياء ، وهو سبحانه وتعالى يعلم ذلك ؛ لأنه خالقهم ، فأمرهم ـ جلّت حكمته ـ أن يستغفروه ؛ ليكفروا عن سيئاتهم .

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

ونعرف أن « قضى » تأتى بمعان متعددة ، والعمدة فى هذه المعانى فصل الأمر بالحكمة ، قد يُفصل الأمر بحكمة لأنه فرغ منه أداء « فإذا قضيتم » أى إذا فرغتم من مناسككم ، هذه واحدة . وقد يكون لأنك فصلت الأمر بخبر يقين مثل قوله الحق :

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الإسراء)

وقد يكون « قضى » بمعنى حكم حكما لازمًا كما تقول : قضى القاضى . إذن فكلها تدور حول معنى : فصل بحكمة . « فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله » . أى إذا فرغتم من مناسككم ، والمناسك هى الأماكن لعبادة ما ، فعرفات مكان للموقف ، و« مزدلفة » مكان للمشعر الحرام يبيت فيه الحجاج . و« منى » منسك للمبيت أيضا ، إذن كل مكان فيه عبادة يُسمى « منسكا » .

وقوله سبحانه : « فاذكروا الله » أى فلايزال ذكر الله دائما واردًا فى الآيات ، كأنك

حين تُوفق إلى أداء شيء إياك أن تغتر ، بل اذكر ربك الذى شرع لك ثم وفقك وأعانك . وكأن الحق يريد أن يضع نهاية لما تعودت عليه العرب فى ذلك الزمان ، فقديما كانوا يحجون ، فإذا ما اجتمعت القبائل فى منى ، كانت كل قبيلة تقف بشاعرها أو بخطيبها ليعدد مآثره ومآثر آبائه ، وما كان لهم من مفاخر فى الجاهلية ، ويحملون الديات ، ويحملون الحمالات ، ويطعمون الطعام ، ويفعلون غير ذلك من العادات ، فأراد الله سبحانه وتعالى أن ينهى فيهم هذه العادة التى هى التفاخر بالآباء وبأعمالهم فقال : « فاذكروا الله كذكركم آباءكم » والذكر معناه توجيه الفكر إلى شيء غير موجود ساعة تأتى به ، ولا يمكن أن يذكر الإنسان من أحداث الماضى إلا الحدث الذى له الأثر النافع فيه ، وعلى مقدار الأثر النافع يكون الذكر .

وكانوا قديما يطعمون الطعام ، والذى يطعم الطعام يؤدى مهمة فى مثل هذه البلاد البُداثية - أى البدوية - وكان من المبالغة فى الجفنات أن بعضهم كالمطعم بن عدى مثلاً كانت له جفنة يحكى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يستظل بها ساعة الهجير . والجفنة هى الوعاء الذى يوضع فيه الطعام ، فتأمل الجفنة كيف تكون ؟!

ويحملون الحمالات ، بمعنى أنه إذا قامت قبيلة على قبيلة وقتلت منها خلقاً كثيراً يتطوع منهم ذو الحسب وذو المروءة وذو الشهامة وذو النجدة فيحمل كل هذه الآثار فى ماله . والديات هى التى يتطوع بدفعها أهل الشهامة منهم إذا ما قتل قاتل قتيلا ، ولا يقدر على أن يعطى ديته ، وكانت كل تلك الأعمال هى المفاخر .

أراد الحق سبحانه وتعالى أن يردهم فى كل شيء إلى ذاته ، فقال لهم : أنتم تذكرون آباءكم ؛ لأنهم كانوا يفعلون كذا وكذا ، وآباؤكم يفتخرون بآبائهم ، انقلوها وسلسلوها إلى خالق كل الآباء وكل البشر ، فكل ما يجرى من خير على يد الآباء مرده إلى الله ، فإن ذكرتم آباءكم لما قدموه من خير ، فاذكروا من أمدهم بذلك الخير .

وهو يريد منهم أن يذكروا الله كذكرهم آباءهم ، أو أشد ذكرا ؛ لأن كل كائن إنما يستحق من الذكر على مقدار ما قدم من الخير ، ولن تجد كل الخير إلا لله ، إذن لابد أن نذكر الله .

وأيضا فإن الإسلام أراد أن ينهى التفاخر بالآباء ليجعل الفخر ذاتيا فى نفس المؤمن ، أى فخرا من عمل جليل نابع وحاصل من الشخص نفسه ؛ ولذلك يقولون فى أمثال هؤلاء الذين يفخرون بأسلافهم إنهم : « عظاميون » أى منسوبون إلى مجد صنعه من صاروا عظاما تضمها القبور ، والله يريدنا أن نكون ذاتيين فى مفاخرنا ، أى أن نفخر بما نفعل نحن ، لا بما فعل آباؤنا ، فالآباء أفضوا إلى ما قدموا ، ويريد الله أن يأخذ الإنسان ذاتية إيمانية تكليفية . ومن يريد أن يفتخر فليفتخر بنفسه ، ولذلك يقول الشاعر :

لا تكونوا عظاميين مفخرة
ماضيهم عامر فى حاضر خرب
لا ينفع الحسب الموروث من قدم
إلا ذوى همة غاروا على الحسب
والعود من مثمر إن لم يلد ثمراً
عَدّوه مهما سَمَا أصلاً من الحطب

فالنبات الذى ليس له ثمرة ، يعتبره الناس مجرد حطب ، ويريد الحق أن ينبه فى المؤمن ذاتية تفعل ، وليس ذاتية تفتخر بأنه كان وكان ، بل على كل إنسان أن يقدم ما يفتخر به :

ليس الفتى من يقول كان أبى
إن الفتى من يقول هأنذا

وعندما كان العرب يتفاخر بعضهم على بعض يقول أحدهم للآخر : يا أخى أنت تفتخر علىّ بماذا ؟

فيرد عليه الثانى : أفتخر عليك بآبائى وأجدادى .

فيرد الأول : اذكر جيدا أن مجد آبائك انتهى بك ، ومجد آبائى بدأ بى ، ولماذا لا أجعل لآبائى الفخر بأنهم أنجبونى ؟

وفى ذلك يقول أحدهم :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم
كلا لعمرى ولكن منه شيبانُ
وكَمْ أبٍ قد علا بابن ذُرا شَرَفٍ
كما عَلَتْ برسول الله عدنانُ

ومادام القوم يفتخرون بحى منهم ، فهم يلتحمون بمن يعطيهم المدد ليكونوا شيئا باقيا ومؤثرا فى الوجود ، وليس بذلك الشىء المحدود المتمثل فى أنه يطعم الطعام ، ويحمل الحمالات ويؤدى الديات ، وإنما يكون بحمل رسالة الإنسانية العالمية .

« فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا » . لأن ذكركم الله سيصلكم بالمدد منه ، ويعطيكم المعونة لتكونوا أهلا لقيادة حركة الحياة فى الأرض ، فتوطدوا فيها الأمن والسلام والرحمة والعدل ، وهذا هو ما يجب أن يكون مجالا للفخر .

وبعد ذلك يلفتنا الحق فيما يأتى إلى أن الإنسان إذا ما قضى المناسك كان أهلا لأن يضرع إلى الله ، ويسأل الله بما يجب أن يسأله ، والسؤال لله يختلف باختلاف همة السائلين ، وكانوا لا يسألون الله إلا قائلين : يارب أعطنى إبلاً ، يارب أعطنى غنماً ، يارب أعطنى بقراً ، يارب أعطنى حائطاً - أى بستاناً - ، يارب كما أعطيت أبى أعطنى .

ولم يكن فى بالهم إلا الأمور المادية ، وأراد الله أن يجعلهم يرتفعون بالمسألة لله ، وأن يُصَعِّدُوها إلى شىء أخلد وأبقى وأنفع ، ومن هنا تأتى المزية الإيمانية ، فإذا كنتم ستسألون الله متاعا من متاع الدنيا فما الفارق بينكم وبين أهل الجاهلية ؟

ذلك ما نفهمه من قول الله عز وجل فى ختام هذه الآية : « فمن الناس من يقول ربنا ءاتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق » . فالعبد حين يؤدى مناسكه لله يجد نفسه أهلا لأن يسأل الله ، ومادمت قد وجدت نفسك أهلا لأن تسأل الله فاسأل الله بخير باق ؛ لأن الإنسان إنما يُصَعِّدُ حاجته إلى المسئول على مقدار مكانة المسئول ومنزلته ؛ فقد تذهب لشخص تطلب منه عشرة قروش ، وقد تذهب لآخر أغنى من

الأول فتقول له : أعطني جنيها ، ولثالث : تطلب منه عشرة جنيهات ، إنك تطلب على قدر همة كل منهم في الإجابة على سؤالك .

إذن مادام العباد بعد أداء المناسك في موقف سؤال لله فليُصَعِّدُوا مسألتهم لله وليطلبوا منه النافع أبداً ، ولا ينحطوا بالسؤال إلى الأمور الدنيوية الفانية البحتة . « فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخر من خلاق » إن العبد قد لا يريد من دعائه لله إلا الدنيا ، ولا حظ ولا نصيب له في الآخرة ، ومثل هذا الإنسان يكون ساقط الهمة ؛ لأنه طلب شيئاً في الدنيا الفانية ، ويريد الله أن نُصَعِّد همتنا الإيمانية ، ولذلك يتبعها بقوله الحق :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾

ولماذا لم ننس الدنيا هنا ؟ لأنها هي المزرعة للآخرة . وقوله سبحانه : « آتنا في الدنيا حسنة » اختلف فيها العلماء ؛ بعضهم ضيقها وقال : إن حسنة الدنيا هي المرأة الصالحة . وقال عن حسنة الآخرة إنها الجنة . ومنهم من قال : إن حسنة الدنيا هي العلم ؛ لأن عليه يُبْنَى العمل ، وفي حسنة الآخرة قال : إنها المغفرة ؛ لأنها أم المطالب .

ومن استعراض أقوال العلماء نجدهم يتفقون على أن حسنة الآخرة هي ما يؤدي إلى الجنة مغفرة ورحمة ، لكنهم اختلفوا في حسنة الدنيا . أقول : لماذا لا نجعل حسنة الدنيا أعم وأشمل فنقول : يارب أعطنا كل ما يُحَسِّنُ الدنيا عندك لعبدك .

ويذيل الحق هذه الآية بقوله : « وقنا عذاب النار » وسبحانه وتعالى حين يَمْتَنُّ على عباده يمتن عليهم بأن زحزحهم عن النار وأدخلهم الجنة ، كأن مجرد الزحزحة عن

النار نعيم ، فإذا ما أدخل الجنة بعد الزحزحة عن النار فكأنه أنعم على الإنسان بنعمتين ؛ لأنه سبحانه قال :

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾

(من الآية ٧١ سورة مريم)

ومعناها أن كل إنسان سيرى النار إما وهو فى طريقه للجنة ، فيقول : الحمد لله ، الإيمان أنجانى من هذه النار وعذابها . فهو عندما يرى النار وبشاعة منظرها يحمد الله على نعمة الإسلام . التى أنجته من النار . فإذا ما دخل الجنة ورأى نعيمها يحمد الله مرة ثانية . وكذلك يرى النار مَن هو مِن أهل الأعراف أى لا فى النار ولا فى الجنة ، يقول الحق :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴾

والنصيب هو الحظ ، وأما « مما كسبوا » فنعرف من قبل أن فيه « كسب » وفيه « اكتساب » . والاكتساب فيه افتعال ، إنما الكسب هو أمر عادى ، ولذلك تجد أن الاكتساب لا يكون إلا فى الشر ؛ كأن الذى يفعل الشر يتكلف فيه ، لكن من يفعل الخير فذلك أمر طبيعى من الإنسان . والمقصود بـ « مما كسبوا » هنا هو الكسب من استيفاء أعمالهم التى فعلوها فى الحج إحراماً ، وتلبية . وطوافاً ، وسعياً ، وذهاباً إلى « منى » ، وذهاباً إلى « عرفات » ووقوفاً بها ، وإفاضة إلى « مزدلفة » ، ورمياً للجمار فى « منى » ، وطواف إفاضة ، وكل هذا كسب للإنسان الذى نال شرف الحج .

وعندما نقرأ : « والله سريع الحساب » فلنفهم أن السرعة هى أن يقل الزمن عن الحدث ، فبدلا من أن يأخذ الحدث منك ساعة ، قد تنهيه فى نصف ساعة ، وكل حدث له زمن ، والحدث حين يكون له زمن وتريد أن تقلل زمن الحدث فلا بد أن تسرع فيه حتى تنجزه فى أقل وقت . وتقليل الزمن يقتضى سرعة الحركة فى الفعل ، وذلك فى الأفعال العلاجية التى تحتاج مُعَالجة ، وعملاً من الإنسان ، لكن سبحانه يفعل بـ« كُن » ولا يحتاج عمله إلى علاج ، وبالتالى لا يحتاج إلى زمن ، إذن فهو سريع الحساب ؛ لأنه لا يحتاج إلى زمن ، ولأنه لا يشغله شأن عن شأن ، وهذا هو الفرق بين قدرة الواحد سبحانه وقدرة الحادث ؛ لأن الحادث عندما يؤدى عملاً ، فهذا العمل يشغله عن غيره من الأعمال ، فلا يستطيع أن يؤدى عمليتين فى وقت واحد ، لكن الواحد الأحد لا يشغله فعل عن فعل ، وبالتالى يفعل ما يريد وقتما يريد ولكل من يريد .

ولذلك سُئل الإمام على بن أبى طالب : كيف يحاسب الله الخلائق جميعاً فى لحظة واحدة ؟. فقال : « كما يرزقهم فى ساعة واحدة » . فهو سبحانه الذى يرزقهم ، وكما يرزقهم يحاسبهم . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ۚ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

ونلاحظ أن ذكر الله أمر شائع فى جميع المناسك ، و« فى أيام معدودات » أى فى أيام التشريق . فى اليوم التاسع نكون فى عرفة وليلة العاشر نبيت فيها بـ« مزدلفة » ، ثم بعد ذلك نفيض من حيث أفاض الناس ، نذهب لرمى جمرة العقبة ، وبعضنا يذهب ليطوف طواف الإفاضة وينهى مناسكه ، أو قد يذهب ليذبح ويتحلل التحلل

الأصغر ، إن لم يكن معه امرأة ، وإن طاف فهو يتحلل التحلل الأكبر . أما الأيام المعدودات أى أيام التشريق فهى الأيام الثلاثة بعد يوم النحر . وقد سميت بذلك نسبة إلى الشروق ، والشروق خاص بالشمس ، كانوا قديماً إذا ما ذبحوا ذبائحهم أخذوا اللحم وشرقوه ، أى عرضوه لمطلع الشمس كلون من الحفظ ، ومن هنا سميت هذه الأيام بأيام التشريق . وعندما نسمع قوله : « فى أيام معدودات » نفهم منها أنها فوق يومين .

وبعد ذلك يقول الحق : « فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى » . قول الحق سبحانه وتعالى : « فى أيام معدودات » ثم قوله : « فمن تعجل فى يومين » يدل على أن كلمة « أيام » تطلق على الجمع وهو الأكثر من يومين ، أى ثلاثة أيام ، لكن الحق سبحانه وتعالى جعل للقيام بيومين حكم القيام بالثلاثة ، فإن تعجلت فى يومين فلا إثم عليك ومن قضى ثلاثة أيام فلا إثم عليه كيف يكون ذلك ؟ .

لأن المسألة ليست زمناً ، ولكنها استحضار نية تعبدية ، فقد تجلس ثلاثة أيام وأنت غير مستحضر النية التعبدية ؛ لذلك قال سبحانه : « لمن اتقى » ، فإياك أن تقارن الأفعال بزمنها ، وإنما هى بإخلاص النية والتقوى فيها .

ويذيل الحق الآية بالقول الكريم : « واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون » . وقد جاء سبحانه وتعالى بكلمة « تحشرون » لتناسب زحمة الحج ؛ لأنه كما حشركم هذا الحشر وأنتم لكم اختيار ، هو سبحانه القادر أن يحشركم وليس لكم اختيار . فإذا كنت قد ذهبت باختيارك إلى هذا الحشر البشرى الكبير فى الحج فاعرف أن الذى كلفك بأن تذهب باختيارك لتشارك فى هذا الاجتماع الحاشد هو القادر على أن يأتى بك وقد سُلب منك الاختيار . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا

وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾
وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ
ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يضع أمامنا قضية وجودية ، وهذه القضية الوجودية هى أن كل عمل له ظاهر وله باطن . ومن الجائز أن تتقن الظاهر وتدلس على الناس فى الباطن ، فإذا كان الناس لهم مع بعضهم ظاهر وباطن . فمن مصلحة الإنسان أن ينتمى هو والناس جميعاً إلى عالم يعرف فيه كل إنسان أن هناك إلهاً حكيماً يعرف كل شىء عنا جميعاً .

فإذا كان عندك شىء لا أعلمه ، وأنا عندى شىء أنت لا تعلمه كيف تسير مصالحنا ؟ ولذلك فمن ضروريات حياتنا أن نؤمن معا بإله يطلع على سرائرنا جميعاً ، وهذا ما يجعلنا نلزم الأدب . ولذلك قيل : « إن عَمِّيَتَ على قضاء الأرض فلن تعمى على قضاء السماء » .

إذن فقضاء السماء وعلم الله بالغيب مسألة يجب أن نحمده عليها ، لأنه هو الذى سيحمى كل واحد منا من غيره . وعندما ستر الله غيبنا فذلك نعمة يجب أن نشكره عليها ؛ لأن النفوس متقلبة . فلو علمت ما فى نفسى عليك فى لحظة قد لا يسرك . . وقد لا تنساه أبدا ويظل رأيك فىّ سيئاً ، لكن الظنون والآراء تمر عندى وعندك وتنتهى . ولو اطلع كل منا على غيب الآخر لكانت الحياة مرهقة ، والقول المأثور يذكر ذلك : « لو تكاشفتم ما تدافنتم » .

إذن فمن رحمة الله ومن أكبر نعمه على خلقه أن ستر غيب خلقه عن خلقه . والحق يحذرنا ممن قال فيهم : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا » أى الذين يظهرون من خير خلاف ما يبطنون من شر ، ولذلك صور الشاعر هذه المسألة فقال :

على الـذم بتنـا مجمعـين وحـالنـا
من الخوف حال المجمعين على الحمد

أى لو تكاشفنا لقلنا كلنا ذماً ، إنما كلنا مداحون حين يلقى بعضنا بعضا كل يقول بلسانه ما ليس فى قلبه . و« يعجبك قوله » فهل الممنوع أن يعجبك القول ؟ لا ، يعجبنى القول ولكن فى غير الحياة الدنيا ، فالقول الذى يعجب هو ما يتعلق بأمر الحياة الآخرة الباقية ليضمن لنا الخير عند من يملك كل الخير .

وكفى بالذى يسمع من مادح له مدحاً ، والمادح نفسه يُضمر فى قلبه كرهاً له ، وكفى بذلك شهادة تغفيل للممدوح ، بأنه يقول بينه وبين نفسه : « إن الممدوح غبى ؛ لأنى أمدحه وهو مصدق مدحى له » . إن الله سبحانه وتعالى ينبهنا إلى ضرورة أن يكون المسلم يقظا وفطناً ، ومن يقول لنا كلاماً يعجبنا فى الحياة الدنيا نتهمه بأن كلامه ليس حسنا ؛ لأن خير الكلام هو ما يكون فى الأمر الباقى .

ولذلك عندما أرسل خليفةُ المسلمين للإمام جعفر الصادق يقول له : ـ لماذا لاتغشانا ـ أى لا تزورنا ـ كما يغشانا الناس ؟ فكتب الإمام جعفر الصادق للخليفة يقول : أما بعد فليس عندى من الدنيا ما أخاف عليه ، وليس عندك من الآخرة ما أرجوك له . وكأنه يريد أن يقول له اتركنا وحالنا ؛ أنت محتاج لمن يجلس معك ويمدحك ، وأنت لا تعلم أن أول أناس لهم رأى سيىء فيك هم من يمدحونك .

« ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا » وهذه الآية نزلت فى الأخنس ابن شريق الثقفى واسمه أُبىّ ولقب بالأخنس لأنه خنس ورجع يوم بدر فلم يقاتل المسلمين مع قريش واعتذر لهم بأن العير قد نجت من المسلمين وعادت إليهم ، وكان ساعة يقابل رسول الله صلى الله عليه وسلم يظهر إسلامه ويلين القول للرسول ويدعى أنه يحبه،ولكنه بعد أن خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بزرع وحُمُر لقوم من المسلمين فأحرق الزرع وقتل الحُمُر . والآية وإن نزلت فى الأخنس فهى تشمل كل مُنافق .

« ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام » لا تقولوا : « الله يشهد » ، وإنما

هاتوا شهـداءكم ليشهـدوا على صدق قولكم ؛ لأن مـعنى « الله يشهد » هو إخـبار منك بأن الله يشهـد لك . وأنت كاذب فى هذه ، وتريد أن تضـفى المصداقـية على كذبك بإقحام الله فى المسألة .

وساعة تسمع واحداً يقول لك : أُشهِدُ الله على أنى كذا ، فقل له : هذا إخبار منك بأن الله يشهد ، وأنت قد تكذب فى هذا الخـبر ، أنا أفضل أن يشهد اثنان من البـشر ولا نقـحم الله فى هذه الشهـادة . « ويشهـد الله على ما فى قلبـه وهو ألد الخصام » وألد الخصام هو الفاسق فى معصيته ، ويقال : فلان عنده لدد أى له فسق فى خصومته ، ويجادل بالباطل . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «إنّ أبغض الرجال إلى الله هو الألد الخصم »[1] .

يعنى المجادل بالبـاطل الذى عنده قسوة فى المعـصية ، فهـو عاصٍ وفى الوقت نفسه قاسٍ فى مـعصيته . ولماذا هو ألد الخصام ؟ لأن الذى يجـابهك بالأمر يجعلك تحتـاط له ، أما الذى يقـابلك بنفاق فـهو الذى يريد أن يخـدعك ، وهذا عنف فى الخصـومة ، فالخـصم الواضح أفضل لأنه يواجهك بما فى باطـنه ، لكن إذا جابهت الذى يُبطِن خصومتـه ويظهر محبته يكون قاسياً عليك فـى خصومته ؛ لأنه يريد أن يخدعك ويُبيّتُ لك .

« وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها » و « تولى » : انصرف أى يقول لك ما يعجبك ، فإذا تولى عنك نقل المسألة إلى الحقيقة بإظهار ما كان يخفيه ، ويحتمل المعنى أنه إذا تولـى شيئـاً آخـر ، من الولاية ، فـفـيـه « تَولّى » من التّـولّى وهو الانصراف والإعراض ، وفيه « تَولّى » من الولاية .

« وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل » كانت الأرض بدون تدخل البشـر مخلوقة على هيئـة الصلاح ، والفساد أمر طـارىء من البشر . ونعرف أن الفساد لم يطرأ على أى أمر إلا وللإنسان فيه دخل .

---

(١) رواه البخارى ، ومعنى « الألد الخصم » : الأشد فى خصومته .

لماذا اشتكينا أزمة قوت ولم نشتك أزمة هواء ؟ لأن الهواء لا تدخل للإنسان فيه ، وبمقدار تدخل الإنسان يكون الفساد . لقد تدخلنا قليلاً فى المياه فجاء فى ذلك فساد ، فلم نحسن نقلها فى مواسير جيدة فوصلت لنا ملوثة ، أو زاد عليها الكلور أو نقص . وبقدر ما يكون التدخل يكون الإفساد ، أما فى الزمن القديم فقد كان الإنسان يذهب إلى مصدر الماء المباشر فى الآبار ويأخذ الماء الطبيعى الذى خلقه الله بلا تدخل من الإنسان ولم يكن تلوث أو غيره .

إذن على مقدار وجود الإنسان فى حركة الحياة غير المُرشَدة بالإيمان بالله ينشأ الفساد ، ولذلك كان لابد له من منهج سماوى للإنسان . والكائنات غير الإنسان ليس لها منهج وهى مخلوقة بالغريزة وتؤدى مهمتها فقط ؛ فالدابة لم تمتنع يوماً عن ركوبك عليها ، ولم تمتنع أن تحمل عليها أثقالك ، أو تستعين بها فى الحرث ، أو الرى ، حتى عندما تذبحها لا تمتنع عليك ، لماذا ؟ لأنها مخلوقة بالغريزة التى تؤدى بها الحركة النافعة بدون اختيار منها . وإذا امتنعت فى وقت فإنما يكون ذلك لأمر طارىء كمرض مثلا .

لكن الذى له اختيار لابد أن يكون له منهج يقول له : افعل هذه ولا تفعل تلك . فإن استقام مع المنهج فى « افعل » و« لا تفعل » سارت حياته بشكل متوازن ، لكن إذا لم يستقم تفسد الحياة . وهذا ما نفهمه من قوله تعالى : « وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها » ، كأن الإفساد هو الذى يحتاج إلى عمل ، اترك الطبيعة والمخلوقات كما هى تجدها تعمل فى انضباط وكمال على ما يرام .

إذن فالفساد طارىء من الإنسان الذى يحيا بلا منهج لأنه « إذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها » فكأن الأصل فى الأرض وما فيها جاء على هيئة الصلاح ، فإن لم تزد الصالح صلاحاً فلا تحاول أن تفسده . قال تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ومن هنا نفهم أنهم ظنوا أن الأرض تحتاج إلى حركتهم لإصلاحها ، برغم أن الأرض بدون حركتهم صالحة ؛ لأنهم لا يتحركون بمنهج الله .

إذن هذه الآية نفهم منها أن الإنسان إذا « تولى » بمعنى رجع أو تولى ولاية سعى فى الأرض ليفسد فيها ؛ فكأن الفساد فى الأرض أمر طارىء وينتج من سعى الإنسان على غير منهج من الله . وما دام للإنسان اختيار فيجب أن يكون له منهج أعلى منه يصون ذلك الاختيار ، فإن لم يكن له منهج وسار على هواه فهو مفسد لا محالة .

وانظر إلى غباء الذى يفسد فى الأرض ، هل يظن أنه هو وحده الذى سيستفيد فى الأرض ، فأباح لنفسه أن يفسد فى الأرض لغيره ؟ إنه ينسى الحقيقة ، فكما يُفسد لغيره ، فغيره يفسد له ، فمَنْ الخاسر ؟ كلنا سنخسر إذن .

﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ . . (٢٠٥) ﴾

(سورة البقرة)

والحرث له معنيان : فمرة يُطلق على الزرع ، ومرة يُطلق على النساء ، المعنى الأول ورد فى قوله تعالى :

﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ . . (٧٨) ﴾

(سورة الأنبياء)

فالحرث فى الآية معناه : الزرع ، والزرع ناتج عن إثارة الأرض وإهاجتها . وعملك يا أيها الإنسان أن تهيج الأرض وتثيرها ، وتأتى بالبذر الذى خلقه الله فى الأرض التى خلقها الله ، وتسقيها بالماء الذى خلقه الله ، وتكبر فى الهواء الذى خلقه الله ، ولذلك يلفتنا وينبهنا الحق ـ سبحانه ـ فيقول :

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾

(سورة الواقعة)

والمعنى الثانى : يُطلق الحرث على المرأة فى قوله تعالى :

﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾

(من الآية ٢٢٣ سورة البقرة)

وإذا كان حرث الزرع هدفه إيجاد النبات فكذلك المرأة حتى تلد الأولاد . ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾

(من الآية ٢٢٣ سورة البقرة)

وأراد المتحللون الإباحيون أن يُطلقوا إتيان المرأة فى جميع جسدها ، ونقول لهم : لاحظوا قوله : « حرثكم » والحرث محل الإنبات ، فالإتيان يكون فى محل الإنبات فقط ، لا تفهمها تعمياً وإنما هى تخصيص . ويتابع الحق وصف الذى يقول القول الحسن ، ولكنه يسعى فى الأرض بالفساد فيقول : « ويهلك الحرث والنسل » . والنسل هو الأنجال والذرية .

ويذيل الحق الآية : « والله لا يحب الفساد » أى أن الحق يريد منكم إن لم تدخلوا بطاقة الله التى خلقها لكم فكراً وعطاء ، فعلى الأقل اتركوا المسألة كما خلقها الله ؛ لأن الله لا يحب أن تفسدوا فيما خلقه صالحاً فى ذاته .

وما سبق فى هذه الآية هو مجرد صورة من صور استقبال الدعوة الإسلامية فى أول عهدها ، من الذين كانوا ينافقون واقعها القوى ، فيأتون بأقوال تُعجب ، وبأفعال تعجب من يُنافق . ونعرف أن النفاق كان دليلا على قوة المسلمين ، ولذلك لم ينشأ النفاق فى مكة ، وإنما نشأ فى المدينة . فقد قال الحق :

﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾

(من الآية ١٠١ سورة التوبة)

وربما يتساءل إنسان : وكيف تظهر هذه الظاهرة فى البيئة الإيمانية القوية فى المدينة ؟ ونقول : لأن الإسلام فى مكة كان ضعيفاً ، والضعيف لا ينافقه أحد ، والإسلام فى المدينة أصبح قوياً ، والقوى هو الذى ينافقه الناس .

إذن، فوجود النفاق فى المدينة كان ظاهرة صحية تدل على أن الإيمان أصبح قوياً بحيث يدعيه مَنْ ليس عنده إسلام . وهؤلاء كانوا يقولون قولاً حسناً جميلاً ، وقد يفعلون أمام مَنْ ينافقونه فعلاً يُعجب مَنْ يراهم أو يسمعهم ، ولكنهم لا يثبتون على الحق ، فإذا ما تولوا ، أى اختفوا عن أنظار مَنْ ينافقونه رجعوا إلى أصلهم الكفرى ، أو إذا ائتمنوا على شيء فهم يسعون فى الأرض فساداً .

والآية هنا تتعرض لشيء يدل على فطنة المؤمنين ، إن الآية فضحت مَنْ نافق . وكان الأخنس عمدة فى النفاق ، وفضيحة المنافق بهذه الصورة ، تدل على أن وراء محمد صلى الله عليه وسلم ووراء المؤمنين بمحمد ، ربًّا يخبرهم بمَنْ يدلس عليهم، وأيضاً ينبههم لضرورة أن تكون لهم فطنة بدليل قول الحق :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) ﴾

ولا يقال له اتق الله إلا إذا كان قد عرف أنه منافق ، وما داموا قد قالوا له ذلك فهذا دليل على أن فطنتهم لم يجز عليها هذا النفاق . ونفهم من هذه الآية أن المؤمن كيِّس فطن ، ولابد أن ينظر إلى الأشياء بمعيار اليقظة العقلية ، ولا يدع نفسه لمجرد الصفاء الربانى ليعطيه القضية ، بل يريد الله أن يكون لكل مؤمن ذاتية وكياسة .

« وإذا قيل له اتق الله » فكأن المظهر الذى يقول أو يفعل به ، ينافى التقوى ؛ لأنه قول معجب لا ينسجم مع باطن غير معجب ، صحيح أنه يصلى فى الصف الأول ،